

****

الطريق

إلى الله

من تأليف: عون وردة

## الطريق إلى الله

وضعت نقطة البداية وأنا لا أكاد أستطيع تحديد وجهة، أو التفَكر في موضوع ما أضعه نصب عينيّ، لأسترسل في الكتابة...

كان لي هدف وحيد، أن أكتب وأكتب ولا أتوقف عن الكتابة. ببساطة لأنها تشعرني بأني حي أرزق بأن لوجودي هدف، لم أود أن اكتب كلمات تتكرر في الكتب والروايات والخواطر، أردت أن أصل إلى أعماق شعور من سيقرأ كلماتي.

أجل كان هذا مبتغاي عندما بدأت التفكير لأكتب شيء يسعد من حولي أو بالأحرى يسعدني ويجعل من حولي كلما قرؤوه عاد إليهم الأمل، عادت إليهم روح البذل والعطاء دون انتظار رد الجميل.

في زمني، في حياتي، تتجلى أمور عدة كلما حاولت التفكير فيها أجدني أحتار...

لا أعلم متى بدأت حياتي بالضبط هل مذ بدأت أعي ما حولي أو مذ دخلت مقاعد الدراسة وانتهى بي المطاف إلى المراحل الجامعية، وفي هذا التخصص بالذات. لا أعلم متى أو كيف لكن أحيانا لا يستطيع المرء أن يحس بأنه يعيش حقا أو أنه عاش إلا عندما يحدث معه موقف أو أمر يحدِث له صدمة فكأن به يستفيق من غيبوبة لطالما اعتاد الناس رؤيته من خلالها ملقى على طريق الأمل راجيا أن يعيش؛ كانت هذه فكرته عن نفسه أما الناس فقد كان أغلبهم يرونه يعاني سكرات الموت فقط تجذبهم فكرة أنه ما مات لحد الساعة رغم أن أجهزة الإنعاش قربه قد صدئت وانتهى وقت عملها.

وددت أن أكتب حكاية عن شيء ما أو شخص ما لكن كلما حاولت أجدني أقع في دوامة الحديث عن نفسي، ربما هي خواطر لا يستطيع المرء منا التخلص منها أو الانفصال عن روحه كما يعتقده بعض الصوفية المستحدثين، فما انفصل الجسد عن الروح إلا وكانت هذا نهايته، فهل كان حي يوماً ميتاً...

يا ترى هل جربنا يوما الحديث مع الله، هل ستقولون لي دعوناه سبحانه، أقول متى؟ لربما في وقت كنت تحتاج فيه إلى أمر ما، إلى قضاء حاجة من حوائج الدنيا، إلى طلب العون منه سبحانه لينقذ والدك أو والدتك من مرض ألمٌ بأحدهما أو ربما لطلب زوج صالح أو زوجة صالحة... نحن البشر نطلب دون توقف ونترجى المولى ونلح بالدعاء كلما ضاقت علينا فور أن تفرج من رب لطيف عزيز منان ننسى أن نشكره سبحانه على عطائه؛ رغم أن الواحد منا كلما فعل أمرا جيدا لأحد ما أو لبٌى حاجته انتظر منه الشكر وغضب إذا ما لم يحصل عليه و لربما تحولت مساعدته إلى منٌ وأذى.

هل تفكرنا يوما أن لكل هذا نهاية، أجل نهاية. تأمل... يوما ما جرب أن تنام في مكان مظلم وأن تغلق كل أمر يصلك بالخارج جرب أن تحس نفسك قد ودعت كل أقاربك، وكل البشر الذين حولك جرب أن تكتب وصيتك الأخيرة، جرب أن تحس نفسك قد قضيت نحبك وأنت الآن في قبرك ربما لن تستشعر هذا الأمر إلا إذا عرفت ما هو القبر؟ هل حقا سأموت وأقبر تحت الثرى؟ هل حقا ستزورني أمي يوما وتبكي على قبري وتطلب الرحمة من الله لي؟ هل حقا الموت موجود؟ تفَكر هل الإنسان منا المسلم يعرف مدى ظلمة القبر ووحشته؟ هل المسلم منا يخشى ذاك اليوم الذي يترك فيه وحيدا بين من سبقوه من الأموات؟

أتودون الشعور بهذا؟ حقا إنه شعور يجعل أيًا منُا يحس بأن كل ما يطلبه ويتمناه من أموال وأولاد ومقتنيات لا معنى له

لماذا يا ترى قلت لك تأمل، جرب أن تحس بهذا الشعور، ليس لأجعلك كئيباً منزوياً مقبلاً على البكاء على نفسك؛ لا بل لأجعلك ترى كم أننا حقاً انزوينا عن ديننا ابتعدنا كثيراً. يا الله كم هو شعور مفزع أن أترك كل ما هو لي، كل ما عملت بجهد للحصول عليه، وأن أذهب حتى دون وداع... دون وداع.

### المحطة الأولى:

كعادته، خرج مخلفا وراءه فرقعة تكاد تشبه انفجار قنبلة انخلع منها قلب أمه، فخرجت مسرعة من مطبخها الصغير لترى ما حدث وعيناها تكادان تخرجان من مكانهما وقلبها دقاته بلغت الألفا في الدقيقة نادت ابنتها ما كان هذا؟ فما جاءها الرد إلا باردا وجافا إنه أخي قد خرج وأغلق الباب بقوة... تنهدت الأم متحسرة على ابنها مهددة إياه عند العودة مخفية دمعاتها وحسرتها في قلبها.

أما عن عبد الله فقد استمر في المشي لا لوجهة معينة فقط يتسكع دون أن ينسى وضع تعبيرات التكشير والغلظة وتقطيب الحاجبين على وجهه.

عبد الله شاب يافع كان من المفروض أن يكون مفعما بالحياة والنشاط كله أمل زهرة الشباب... قذف بحجرة صغيرة برجله واستمر في مشيته التي لا تكاد ترى من خلالها أن صاحبها له هدف في الحياة فقط يسير حيث تأخذه قدمه. وصل إلى حيث يجلس الكثير من أترابه طول النهار بنفس حالته جلس على أقرب كرسي رآه نادى النادل أن هات لي قهوة مضغوطة وأكثِر من السكر علٌ أيامي تحلو... أخذ يرتشف قهوته ويفكر، أحمد زميلي أبوه غني منذ درسنا في المتوسطة كان يملك أحدث موديل من السيارات في وقتنا ذاك؛ بينما أنا و يا حسرة علي كنت أحلم بحذاء رياضي من سوق الملابس المستعملة. كانت البنات يتمنين أن ينظر إليهن بينما احتقرنني وازدرينني كلما نظرت إلى إحداهن نظرة إعجاب... يضحك على نفسه يا لها من أحلام حمقاء تذُكر إحدى أحلامه التي لم يذكرها لأحد... هديل... اسم تعلق بإحدى الفتيات اللواتي درسن معه كانت تشبه الحمامة، لم تكن تختلف عن الحمامة. أينما حلت نظر الكل إليها، كانت تملك أموالا طائلة رغم هذا لم تكن فتاة مغرورة بل كانت ترتدي زيا محتشما أو ما يسمى بالحجاب وما كسرت الحدود في تعامله مع أحد أبدا خاصة من الشباب الذين كانوا يحاولون استجداء عطفها ومحبتها.

مرت أيام مرحلة أيام المتوسطة كنا منقسمين إلى فريقين أولاهما فريق الأغنياء أو طبقة البرجوازية كما نسميها هكذا ثم تأتي طبقة الفقراء أو الزووالة كما سمونا هم بدورهم.

لا أنكر، عشت طفولة ممتعة فعلت كل ما يحلو لي كنت دون أن أقول لما هكذا افعل أو أضع حسابا لأي كان، في المقابل كنت آخر اليوم أصاب بضربة موجعة على قدماي كما يسميها أبي الفلقة حقا كان التعرض لها أشبه بانفتاق القدم وانقسامها إلى جزأين، ثم آخذ من أبي درسا. لم أقل لكم كان أبي رحمه الله إمام مسجد الرحمة في إحدى المرات أخذت محفظة زميلي ورميت بها خارج سور المتوسطة التي كنت ارتادها فعلقت على الأسلاك الشائكة ثم فررت أما زميلي المسكين فقد جاء متأخرا إلى الحصة باكيا ويداه تسيلان دما ومحفظته ممزقة وعن مئزره فلا تسأل قد تطايرت أزراره بعد أن سكت قليلا سأله الأستاذ من فعل بك هذا فوجه نظرة خائفة إلي أخذني الأستاذ بعد أن أذاقني ضربات موجعة على يداي إلى مدير المتوسطة فما كان منه إلا أن صفعني ثم كتب على الورقة الصفراء وهذا كان يعني انه قضي علي وقال لي أحضر ولي أمرك.

أخذتها من يده وخرجت متوجها إلى منزلنا؛ في الطريق فكرت في قصة محبكة لكن فور رؤيتي لوالدي أخذتني الهيبة والرهبة فما كان مني إلا أن قدمت له الورقة بصمت جذب نظارته وفتح الورقة بصمت جذب نظارته وفتح الورقة نظر إلي مليا بعد قراءتها ثم قال لي احمل محفظتك وكل أدواتك وانزع مئزرك. فعلت ما طلبه أبي توجهنا إلى مكتب المدير وجدت زميلي منتظرا رفقة والده دخل أبي ثم قال: السلام عليكم، رد المدير وعليكم السلام يا شيخنا كيف حالك؟ ثم قال: معتذرا عن الاستدعاء أن ابنه فعل لابن مسعود الحلاق كذا وكذا. رأيت أبي محمر الخدين طلب المغفرة من المدير، ثم قال لي: تقدم وقدم محفظتك ومئزرك لزميلك أخذتهما وقدمتهما رغما عني ثم اعتذرت وتنحيت جانبا وأنا احمل حقداً على أبي أحسست انه جعلني أذل وأفقد كرامتي.

عدنا إلى البيت لم أتناول ليلتها العشاء فقط نمت مبكراً لم أستطع مسامحة أبي لأنه لم يتعامل معي كأني ابنه بل وقف في صف زميلي وأعطاه كراساتي و مئزري الجميل الذي خاطته أمي، وكتبت حرفي الأول عليه كان مميزا كنت افتخر به أمام زملائي أما أمام أمي فقلت لما تفعلين هذا سيحرجني أمام زملائي

### المحطة الثانية:

في إحدى أيام الجمعة قال لي أبي أن تعال معي إلى المسجد امتعضت قليلاً ثم رافقته إلى المسجد صعد المنبر بدأ يخطب خطبته الأولى كانت هاته كلماته لحد الساعة ترن في أذني ولم أنسى منها حرفا لان بعدها ما بقي من أبي سوى تلك الخطبتين بعد أن اثني على الله عز وجل بما هو أهله ثم ذكر الحديث الوارد في صحيح مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:إن الرجل ليعمل الزمان الطويل يعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار وان الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة، وذكر أيضًا الحديث في صحيح البخاري عن سهل ابن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن العبد ليعمل عمل أهل النار وانه من أهل الجنة ويعمل عمل أهل الجنة وانه من أهل النار وإنما الأعمال بالخواتيم. ثم ذكر انه جاء في كتاب التذكرة في أحوال الموتى للإمام القرطبي أن أبا محمد عبد الحق قال. اعلم أن سوء الخاتمة –أعاذنا الله منها- لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به –الحمد لله- وإنما تكون لمن كان له فساد في العقل أو إصرار على الكبائر وإقدام على العظائم فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله ثم العياذ بالله، أو يكون مما كان مستقيما ثم يتغير عن حاله ويخرج عن سننه ويأخذ في غير طريقه فيكون ذلك سببا لسوء خاتمته وشؤم عاقبته كإبليس الذي عبد الله فيما يروى ثمانين ألف سنة وبلعام بن باعوراء الذي أتاه الله آياته فانسلخ منها بخلوده إلى الأرض واتباع هواه وبرصيصا العابد الذي قال الله في حقه (كمثل الشيطان اذ قال للإنسان اكفر) –الحشر16-.

ثم أعقب أبي مقولة هذا الشخص الذي حقا في ذلك الوقت لم أعي ما كان يقوله، قلت في نفسي قلت في نفسي انه يتحدث عن الموت وأنا لا زلت صغيرا ربما حتى ابلغ المائة لكي أموت، إذا لا يهم كنت فقط اسمع ما يقوله أبي وأحفظه لأنه غالبًا ما كان سيسألني وان لم اجبه فالضربات على أقدامي ستكون مصيري ثم العمل بعد صلاة العشاء لتنظيف المسجد كل ليلة، المهم أنه أعقب الأقوال و الأحاديث التي استشهد بها بقصة الرجل الذي كان عابدا حيث قال... كان بمصر رجل ملتزم مسجدا للأذان و الصلاة، و عليه بهاء العبادة و أنوار الطاعة، فرقي يوما المنارة على عادته للآذان و كان تحت المنارة دار لنصراني ذمي فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار، فافتتن بها و ترك الآذان و نزل إليها و دخل الدار فقالت له:ما شأنك ما تريد؟ فقال: أنت أريد، قالت:لماذا؟ قال لها:قد سلبت لبي و أخذت مجامع قلبي قالت: لا أجيبك إلى ريبة. قال لها:أتزوجك. قالت له:أنت مسلم وأنا نصرانية و أبي لا يزوجني منك. قال لها: أتنصر. قالت: إن فعلت أفعل، فتنصر ليتزوجها و أقام معها بالدار. فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات. فلا هو بدينه ولا هو بها. فنعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سوء العاقبة و سوء الخاتمة.

أكمل أبي قصة العابد التي أحزنتني لأنه في نظري مسكين تمنيت لو تزوجها و لم يفارقها، حينها كنت غبيا لم ألاحظ أو حتى يقشعر بدني من أنه ما عاد مسلما بل و خرج عن ديننا.

كانت تلك خطبة أبي الأولى ثم أعقبها بالثانية فما كان منه إلا أن حمد الله و أثني عليه و على رسوله الكريم و قال. . إخوتي أخواتي أبنائي بناتي أترون العبرة مما كنت أروي لكم من قصص ليست للإستمتاع أو للبكاء حزنا على موت العابد إنما لأذكر نفسي و إياكم بالخاتمة، أجل... لكل منا خاتمة، و لكل منا صحيفة فبما ملأها ستكون خاتمته فإن فعل خيرا في دنياه و ما أظلته ولا غرته شهواتها فإن الله سيكون به رؤوفا رحيما و من نسيها و ظن أن هذا هو مقره لا ممره، و ظن أن الموت إنما هو للكبار دون الصغار فإنه سيظل و يشقى في دنياه و نسأل الله ألا يختم لنا بسوء خاتمة و أن تكون ذريتنا صالحة تدعو لنا عند موتنا، ونسأله أن يصلح الأحوال التي أصبحت تثير الخوف و الفزع. حقا أمتنا بحاجة لمن يجدد لها إيمانها، و يبين لها مسلكا للوصول إلى طريق الحق طريق الواحد الصمد الديٌان نسأل الله العافية و نستغفره من سوء أعمالنا إخوة الإيمان، أفيقوا من غفلتهم امسحوا الغبار عن مصاحفكم و غشاوة الران عن قلوبكم، إخوة الإيمان أفيقوا فإن الساعة لقريبة آتية.

ثم أنهى خطبته وسط دموع جمع غفير من المصلين، في ذلك الوقت لم أجد لوقع كلام أبي على قلبي شيء، فقط كل ما كنت أخشاه أغفل أو أنسى كلمة مما كان يقول، رغم أن الكل يشهد لي بقوة الحافظة. بعد انتهاء الصلاة خرجنا وإذا بالكل يحيط بأبي وهو ينتعل حذائه ليخرج، أحد الشيوخ يطلب من أبي أن يدعوا له، وامرأة أخرى انتظرت حتى انفض الجمع وتوجهت إلى أبي و بدأت تحكي له عن فقدانها لأحد أولادها و أنه قد أصبح يشرب الكحول، و طلبت أن يتحدث إليه و أن ينصحه.

كانت تلك أول مرة أحس بأن لأبي مكانة في قلوب الناس، كانت تلك أول مرة أعرف أن للكلمات وقعا على القلوب و أن بإمكان الكلمات أن تجعل من الشخص معروفاً. في تلك الليلة أخذت ورقة وقلما ثم قررت أن أكتب خطبة كما يفعل أبي، لكن لم أستطع. عندها قلت لنفسي سأسأله لكن كوني لم أسامحه بعد، جعلني أتراجع. سهرت الليل بطوله، وأنا أكتب كلمات ثم أقرأها فلا أجد لها أي وقع في قلبي حتى انتهت كراستي تماما ومعها بدأ آذان الفجر ينبئ ببداية نهار جديد كان أبي قد استيقظ وأيقظ الكل للصلاة وناداني أيضاً، ثم خرج لإقامة الصلاة في المسجد القريب منا. صلت أختي و أمي أما أنا فنمت، لم أكن أهتم بالصلاة كنت أقوم بها أمام أبي خوفا من عقابه، رغم علم أمي إلا أنها لم تخبر أبي أيضا خوفا من أن يشدد علي في العقاب فأصاب بأذى منه، مرت الأيام مملة في منزلي مسلية في الخارج ازددت مشاغبة وكبرت في السن في آخر سنة لي في المتوسطة حدث ما لم أكن أتوقعه... حدث و يا ليته ما كان.

### المحطة الثالثة:

مع بداية العام الدراسي الأخير لي دخلت ذات يوم إلى المنزل كعادتي أنادي أمي أنا جائع، لكن لم يجب أحد توجهت إلى المطبخ كذلك لا أحد، ناديت أختي بغضب وجدتها تبكي، قلت باستهزاء ما بك هل ضربتك أمي؟ لم تجب وازداد بكائها جذبتها من شعرها وقلت توقفي أين أمي؟ قالت: أن أبي في المشفى وقد وجدوه اليوم ملقى في المسجد بعد أن صلى صلاة الفجر.

أصابتني الرعشة الشديدة في يداي ولم تحلمني قدماي، خرجت اجري كالمجنون إلى المشفى وصلت وجدت أمي تنتظر الطبيب الذي كان يعاين آلاف الحالات الأخرى، انتظرنا ساعة وأبي جثة هامدة على السرير، أمسكت يده، رأيت مدى ضعف تلك اليد التي كانت ضرباتها قاسية في نظري واليوم هي لا تقوى على الحراك، وأخيرا جاء الطبيب متثاقلا وقسمات وجهه تنم عن قسوة قلبه وبرودة أعصابه، بعد فحصه لأبي كتب مجموعة من التحاليل، وقال بان نقوم بها ثم نأتي له بالنتيجة.

بقي أبي في المشفى خمسة عشر يوما والتحاليل لم تظهر نتائجها بعد، ثم أخيرا ظهرت، وطوال تلك الأيام كان أبي يتقيأ دماً وأمي تبكي وتشفق على حاله. لكن لم نكن نعلم بان مرضه قد طال به الأمد ولم يخبر أحدا حتى أمي، بعد ظهور النتائج بدأ أبي يتعالج و يتعالج، وخلال فترة علاجه كنت أبيت معه لتلبية حاجاته ثم اذهب للمدرسة صباحا، لأول مرة في حياتي اكتشف أن لي أبا مثله، كان يتحدث إلي كثيرا، وينصحني كنت اسعد عندما يتحدث حتى ولو لم أفهم ما يقوله حدثني غالب الأحيان عن أحد الأئمة لم أكن قد سمعت اسمه قبلا كان اسمه ابن القيم، كثيراً ما استدل أبي من أقواله خاصة عندما ينصحني كنت ألاحظ عيناه تبرقان سعادة كلما تحدث عنه، استغربت قوله لي أن الإمام ابن القيم قد ساعده كثيرا، من خلال كتاباته وانه قد أعانه للوصول إلى حقيقة معرفة الله أو على الأقل إلى درجة الطمأنينة بالعلم بوجود رب خالق لنا وهو يتكفل بحفظنا ومساندتنا كلما دعوناه، استمر أبي يحدثني عنه وعن كتبه قال لي انه يتمنى لو يراني يوما عالما تحيط الناس به طلبا للمعرفة والعلم قال لي أن أقرا كتبه...

مكث أبي في ذلك المشفى ستة أشهر، استعاد عافيته وبرئ من مرض السل. في يوم الخروج كنت قد أصبحت أحب أبي كثيرا، عزمت على السير على خطاه وأن أكون له كما يحب أن أتعلم، لكن تلك الفرحة، تلك السعادة، ذلك الأمل الذي زرعه أبي، لم يكتمل تلك البذرة التي زرعها أبي فور دخولها تحت الأرض لم تكن بعد جاهزة للتنفس، ولم تكن تعرف بعد أن تلك الأرض هي موطنها وان السماء هو الهدف الذي يجب أن تصل إليه لم تكن تعرف كيف تعتاد على موطنها ولا كيف تتنفس، فقدت حياتها قبل أن تبدأ تلك البذرة كانت الأمل الذي زرعه والدي قبل أن يفارقني إلى حيث لا يمكنني أن أتوسله لكي يعاقبني كنت سأرضى بان أعاقب كل يوم لكن بيدك يا أبي اجل بيدك رحمك الله وطيب ثراك، في ذلك اليوم السعيد المشؤوم جاءت سيارة الأجرة لنقلنا إلى المنزل كنت سعيدا رن هاتف والدي تحدث إلى أمي و أختي وقال بأنه سيعود إن شاء الله إلى البيت قريبا معي، استغربت أسلوب حديثه فكأنه كان يودعهما لم أكن أعلم أنه حقا كان الوداع، قال لهما بأني أصبحت رجل البيت وبأنه يمكنهما الاعتماد علي فقلت له بعد عمر طويل يأبي ابتسم وقال الأعمار بيد الله يا بني، وما إن أنهى جملته حتى أحسسنا بعجلة السيارة قد ثقبت، ونحن على الطريق السريع جاءت شاحنة مسرعة حاول السائق الابتعاد فانزاحت السيارة عن الطريق العام وخرجت لتقع في واد لم تكن به مياه، أما عن أبي فأخذ يصيح بالشهادة وينظر إلي وقد اخترق احد الأعمدة الملقاة هناك مقدمة رأسه وخرج من الخلف، ثم بدأت عظامي تثقل وأخيراً ما عدت أحس بأي شيء و أظلمت الدنيا.

قبل أن افتح عيناي كنت أحلم باني عدت إلى المنزل وبما أصبحت عليه من مستوى علمي رفيع وبأنه في ذلك اليوم ستقدم إلي شهادة الدكتوراه في العلوم الشرعية حملها أبي وتقدم مني ضمني إليه وابتسم و إذا بي أفتح عيناي فتشع الشمس بحرارتها على حدقاتي فأغلقهما بسرعة ثم أعيد فتحهما تدريجيا لأتمكن من الرؤية و أنا لست أعي ما أنا فيه، بدأت اصرخ من الألم الذي أحسه بجسمي رأيت أمي تدخل الغرفة و أختي تسير بجانبها عيونهما كانتا جد حمراوين.

عندها بدأت أتذكر، أبي... صرخت أمي أين أبي أرجوك قولي له أني سأنجح سأحصل على شهادتي سأجعله يفخر بي، أمي أرجوك سأطيعك، أرجوك نادي أبي، أبي جذبت أختي من يدها ترجيتها ان تنادي أبي قالت لي اصبر واحتسب يا عبد الله فأبي قد مات.

عندها أحسست بأن الدنيا قد أظلمت وأن الحياة توقفت هنا حينها فقط تأكدت من أن الموت حق بأن كلمات خطبتي الجمعة كانت حقيقة بأن القبر موحش، أبي وجهه الملائكي ابتسامته الحنونة كلها ستتحلل تحت التراب، يا إلهي... أبي لا تضعوه في القبر أرجوكم، أمي هل دفنتموه أين أبي أرجوكم لا تدفنوه، كانت حالتي قد جعلت أمي تبكي و تقول لي بني لا تجزع إنه قدر الله اصبر واحتسب قلت لها لا أريد الصبر منذ متى و أنا هنا لا استطيع الإحساس بقدمي اليمنى، قالت بأنني لم أستفق منذ ثلاثة أسابيع و أن أبي قد تم دفنه منذ أكثر من أسبوعين، أبعدت الغطاء فإذا بي قد أرى ما هالني قدمي لم تعد موجودة، ثم دخلت في نوبة صراخ قدمي أعيدوها لا؛ تدفنوا أبي هكذا حكوا لي، كلما تذكرته كانت نظرة أمي ورحمتها إياي والممرض يعطيني حقنة مخدر، تلك النظرة تحرق القلب وتجعله يتحطم أسى، أنستني نظرتها حتى الم فقدان ساقي.

المحطة الرابعة:

بعد أيام خرجت من المشفى على كرسي متحرك، أمي كانت تدفع بي الكرسي وأختي تنظر إلي نظرة عطف وشفقة لما آلت إليه حالي... بقيت أياما لا أقوى حتى على الكلام غرفة أبي كنت كل يوم أنتظر أن أراه يخرج منها، كنت انتظر سماع صوت الآذان يوميا، علٌي أحظى بكلمات من صوت أبي وهو يكبر الله ويوحده طال انتظاري دون فائدة ترتجى، كل ثانية تمر كنت أعيش على ذكرياتي مع أبي أعيد نسج كل حوار وكلام سمعته منه، كنت ألومه لما تركني بعد أن أحببته لو بقي قاسياً معي لما حزنت كثيرا لفراقه لما حطمتني أبتاه لما... كنت قد توقفت عن الدراسة حاولت أمي ان تثنيني عن هذا لم أعد أستمع إلى كل ما تقوله لي، أختي حرمتها حتى من حقها في التنفس. من الدراسة أو الخروج من كل شيء، أصبح الجيران يساعدون أمي بميلغ من المال كل شهر لأنهم أحبوا والدي كونه ساعدهم كثيرا، لم أهتم بان آكل من صدقات الناس كانت أمي تنصحني أن أجد عملا لكن كالعادة ما كنت لأستمع كل يوم لمته كرهته، حقدت عليه، لأني ظننت أنه سبب حالتي، أحيانا كثيرة كنت اخذ ما تجمعه أمي من نقود من أجل زواج أختي وأصرفه على أصدقائي. أصدقاء السوء، رغم علمي بأنهم لم يكونوا يحبونني بل ويشمئزون من ساقي المقطوعة ويعيرونني بها، فقط كانوا يستغلون ما أصرفه عليهم ولا يهتمون كنت أعلم كل ذلك لكن لم أهتم.

الآن ها أنا ذا أجلس على قارعة الطريق فوق كرسي حول طاولتي التي اعتدت أن أشارك أصدقائي القهوة والمشروبات والأكل. كنا نجلس نتسامر حتى ساعات متأخرة من الليل بت الآن أصبحت بعد أن تزوجت أختي وأصبحت أمي تزورها غالب الأحيان ما عاد أهل الحي يقدمون لأمي نقودا، تذكرت أبي حين كان يردد هاته الآية (رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِين). أحسست بمعنى الآية بعد أن أصبحت وحيداً، مع غرفة أبي، ومكتبته الضخمة التي لم يكن يسمح لأحد بأن يمسها فقط كان هو من ينظفها ويشعر بالغضب كلما أفسدت أمي ترتيب الكتب فيها، فور عودته من المسجد يبدأ في تصفح كتاب ما حتى ينهيه وينتقل إلى آخر وهكذا فعل مع جل كتبه، بات الغبار يعلو كل كتاب منها.

دخلت إلى المنزل، ولم تكن أمي موجودة، تركت لي رسالة، أنها عادت مع أختي إلى منزلها وستبيت عندها الليلة وأن الأكل بالثلاجة.

وضعت العكاز الذي يساعدني جلست مقابلا التلفاز، أتفرج مررت على قناة بها شيخ كان يشبه أبي في شكله إلى حد ما، تغاضيت عن الأمر ثم أطفات التلفاز.

ذكرى أبي لم تفارقني منذ ست سنوات لم تفارقني لحد اليوم، حملتني ساقاي - آه نسيت ساقي الواحدة - إلى التوجه نحو مكتبة أبي، جلست في مكانه، وظللت أتذكره وماذا كان يفعل وكيف كان يحمل ذلك الكتاب.

ذهبت إلى طاولة كان يستند إليها، رأيت فوقها كتاباً، جلست وفتحته كتابا بعنوان مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد و إياك نستعين، كان الجزء الثالث، وجدت ورقة مطوية تشبه الرسالة في الصفحة المائة والعشرون، أخذتها بسرعة، فتحتها وجدت رسالة من أبي، اجل منذ ست سنوات أو بالأحرى منذ تلك الحادثة التي كرهت فيها أبي وجدته قد كتب رسالة كان يود ان يقدمها لي كتب فيها:

(إلى بني أتعلم رغم كبر سني إلا أني أحياناً كثيراً أخاف، لا أملك الشجاعة للمواجهة، وددت أن أعطيك رسالتي بطريقة أخرى، وددت أن أتحدث إليك بلطف أن أنصحك بلطف لكن منذ علمت بمرضي خفت أن أجعلك تحبني فأخلفك ورائي حزيناً مهزوماً منكسراً، كان من المنطقي ان احبك وتحبني فأنت ابني، لكن أعلم أنك مثلي قاس وتحمل قلباً حنوناً وضعيفاً و لأني أعلم أن الإيمان هو العامل الذي سيقوي قلبك ويجبر فؤادك و أنت لازلت ضعيف الإيمان لأني لم استطع أن أكون لك الأب الحنون، أجل ساعدت الكثير من الأولاد و لكن نسيت ابني ظننت أنك ستكون بخير و أن الإيمان متأصلا فيك دون عون مني لكن نسيت انك ولد صغير، ونسيت أني لم أفعل ما يفعله الآباء بل ظللت أقسو عليك و أجعلك تتألم علك تتعلم لكني اليوم أحسست أني فقدتك أحسست بالخيبة عندما عاقبتك أمام المدير وزميلك والكل لأني كنت أمني نفسي بأنك ستكون الابن البار المتعلم الذي سينال المرتبة الأولى ويكون دكتوراً في الشريعة، أحسست بالخيبة فعلاً، فقد الأمل في اصلاحك، لأني أنا من تسبب في ذلك لك اجل أهملتك ولم أسعى لأجل مساعدتك، بني أتمنى ان تسامح غلطتي يومًا ما، أتمنى من الله ان يعينني أن أنا نجوت من هذا المرض سأحاول أن أكون لك نعم الأب أجل سأكون بجانبك حتى تبلغ المرتبة التي تستحقها، أتعلم أمراً كنت أجبرك على حضور خطبة الجمعة ثم كنت تعيدها علي مشافهة علمت أن لك ذاكرة قوية ستجعلك تتفوق على أقرانك، سأضع لك برنامجاً بإذن الله وأول أمر هو ان تحفظ كتاب الله، أتعلم و الله الذي لا إله إلا هو ان المصحف كان كل ما ملكه أبي في منزله، عاش مع عائلته في فقر مدقع، لكن كان القران سلاحا استطاع أبي به أن يجعل لنفسه مكانة وسط أقرانه، ووسط أهل حيه، لقد عاش إماماً لمسجد هو أيضا وتوفاه الله وهو يصلي صلاة المغرب بالناس، أتعلم لكم أدعو الله أن يقبضني إليه و أنا ساجد، عندما تقرأ كتاب الله وتتعلم ما فيه ستتمنى لو أنك ما عشت إلا لخدمة كتابه وحفظه وتعليم الناس إياه، عندما يملك الإنسان المال فانه بفقدانه له يتعذب ويتحسر ويصاب باكتئاب وحزن عميق، ولا تجد له عزاء حتى أنه لا يجد عزاء في شيء من الدنيا إلا بعودة ماله، أما صاحب القران فمهما أصابته من مصيبة يقول قدر المولى وما شاء كان وما لم يشأ لن يكون، يحضرني حديث رواه الإمام أحمد بن حنبل أعلم انك لا تعرفه لكن بني الغالي إذا أردت أن تعرف كيف وصل لنا الإسلام رغم طول العهد بيننا وبين زمن قرة أعيننا محمد صلى الله عليه وسلم فانظر واقرا قصص حياة هؤلاء العلماء الجهابذة حينها فقط تدرك كيف حفظ الله كتابه العزيز وسنة المصطفى من تحريف وغلو الغالين في دينه سبحانه وقد جاء في حديثه وهو صحيح (أن أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل) و أغلب الأنبياء ما كان لهم مال، إنما رزقهم الله علما معرفة بالله فكلما زادت معرفتك بالله وقربك منه اختبرك الله عز و جل فإذا ادعيت محبته كان لك من الله اختبارا لمعرفة مقدار صدقك في محبته.

أعلم أني أخلط الأمور عليك يا بني الغالي.. أتعلم لما سميتك عبد الله؟ لأني كنت أدعو رب البشر أن تكون من خيرة خلق الله، أن تحمل راية البحث عن الحق، وعن إعلاء كلمة و راية الإسلام بين جيل قد غرته الدنيا، ولاسيما بوسائل الاتصال التي لا أتمنى ان تطالها يدك، و إذا ما كان فأدعو الله ان يهبك علما نافعا يقودك إلى استعمالها فيما ينفع نفسك ومن حولك، عندما رزقت بك علمت ان الله يحبني اذ حباني ورزقني صبياً مشرقاً، بهي الطلعة سعدت كثيرا بك لأني أعلم أن خير ما يخلفه المرء من أعماله بعد موته ذرية صالحة تدعو له واعلم انك لن تنساني يوما... بني أعذر أباك على إهماله لك، و أعدك بإذن الله إذا ما شفيت من مرضي أن أعنى بتعليمك وتأديبك حتى تصير أفضل من كثير ممن ترى أنهم خير منك بأموالهم، فخير ما يرزقك الله علم تتوصل به إلى معرفته سبحانه.

... أرى أني أطلت الكتابة لعل من في مثل سنك لن يفهم ما سأقوله لك لكن سأترك رسالتي هنا ليوم أستطيع فيه تقديمها لك، ليوم تكون لك قدرة فهمها يا بني الغالي).

... من أبيك.

أبي... يا الله، يا الله رحمتك أرجو، لما هكذا، ما أشد غبائي، لم أكن أعلم أنك أروع أب عرفته البشرية، يا إلهي الآن فقط فهمت كم كنت غبيا حينما كرهتك، الآن بعد فوات الأوان، يا الله كم كنت ولداً عاقاً لأبي.

... كانت أمنيته أن أصل لمرتبة يفتخر بي فيها. إلهي ما الذي فعلته، حتى صلاتي لم أكن أصليها في وقتها منذ ست سنوات لم اسجد لله ولا سجدة، لم تقع جبهتي على الأرض.

### المحطة الخامسة:

الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله...

أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا إله إلا الله...

اليوم بداية جديدة يا الله أسالك بلطفك وعفوك أن تغفر لي ما فعلته، يا الله لم أكن ابنا بارا لأبي في حياته، لكني قررت اليوم أن أحقق ما كان يتمنى مني تحقيقه.

في هذا اليوم جاءت الأم باكرا إلى المنزل لقضاء حاجات ابنها وهي مشغولة البال، دخلت الغرفة ذهلت لما رأته عبد الله يصلي ويحاول أن يسجد ويركع حتى مع فقدان ساقه، عبد الله يصلي، يا الله... ونزلت دموع كأنها أغيثت بمطر غزير بعد طول جفاف وقفت تنظر بعينين كلهما رقة وشفقة، أنهى عبد الله صلاته قام والدموع تسيل على خديه، توجه إلى أمه وقع على الأرض يقبل قدميها ويطلب مغفرتها على معاملته القاسية وعلى عدم بره بها، والأم تقول أنها ما فتئت تدعوا له بالهداية و اليوم حمدت الله أسمع و أستجاب دعائها، سبحان الحي الذي لا يموت للأم دعاء لا يخيب بإذنه فقد ذكر في كتابه العزيز وجوب بر الوالدين حيث قال سبحانه (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) أجل إنها سورة الإسراء لأول مرة يتذكر عبد الله هاته الآية لأول مرة يقرأها وكأنما شقت صدره و ذهبت إلى أعماقه لتقول لجانب البر لديه قم، قم يا عبد الله، فأمك وأبوك أنت وحدك تستطيع برهما.

قال عبد الله لأمه أنه قرر معاودة الدراسة وعزم على إنهائها. مرت أسابيع أصبح عبد الله مساعدًا في مخبزة الحي رغم ارتفاع درجة الحرارة وكثرة الوقوف هناك ألا ان عبد الله تميز بحسن اتقان عمله وبشاشته حسن سمته في معاملة الزبائن حتى أن المخبزة أصبحت من أشهر المخابز بين الأحياء.

أصبحت والدته مرتاحة البال، كان عبد الله كلما أكمل عمله توجه إلى البقال واللحام والخضار فاشترى لوالدته ما لذ وطاب ثم يعود إلى المنزل ليطمئن على أمه وكان يدخر بعض المال ويقسمه على صناديق صغيرة سمى كل منها باسم فالأول سماه صندوق أبيه و الثاني صندوق والدته، والثالث هدايا لأخته إما الرابع فكان صندوق الأعمال التي تقربه إلى الله، كان يجمع ماله هكذا وكلما انتهى شهر أخذ كل مال إلى مكانه، أما صندوق بر والده فقد كان يضع فيه النقود ولا يمسه، فنفس الوقت قضى على نفسها يشترى من الصندوق الرابع كل شهر كتابا وأن يقضي ذلك الشهر في قرائته، وكان غالب ما يشتريه من كتب إنما هي كتب ذات طابع إسلامي وقد قرر أن يكمل اقتناء كل كتب ابن القيم رحمه الله

مرت الأيام، اجتاز امتحاناته إلى أن تحصل على شهادة الباكالوريا بمعدل سمح له بالتوجه إلى أي تخصص يختاره، و هنا حباه الله وأعانه فهو ما كان من الأشخاص الذين لا يعرفون أي تخصص يختارون فقد قرر منذ أول وهلة ماذا سيدرس كانت الفرحة عارمة لأنه سيخطو أول خطوة نحو العلوم شرعية التخصص الذي أراده له والده.

المحطة السادسة:

اليوم انطلقت أول الحصص في الجامعة

مسجد ثم جامعة، يا له من مكان رائع لبداية جديدة بعيداً عن كل تلك السنوات من الضياع،

سأنظر أي مادة هي الأولى،... فقه العبادات المدرج الأول حسناً.

-أخي من فضلك هلا دللتني على مكان وجود المدرج الأول

-أهلا بك، تفضل معي أنا متوجه إليه

-اسمي عبد الرحمان، وأنت ما اسمك

-عبد الله

-تشرفنا، العام هذا هي أول سنة لي في دراسة العلوم شرعية وأنت في أي سنة يا ترى

-أنا مثلك

أمر طيب اسكن هنا لكن يبدو أنك غريب عن ولايتي

-أجل

-إذا مرحبا بك عندنا ضيفا مكرما

أشكر لك لطفك

وصلنا إلى المدرج، كان هناك جمع غفير من الطلبة منتشرين أما ذلك المدرج، دخلنا جلست أول الصف جلس بجانبي عبد الرحمان

كان أول من تعرفت عليه في ذلك المكان منذ بداية حديثي إليه لمست بين كلماته تلقائية في الحديث وطيبة، انشرح لها صدري وانزاح عني ذلك الضيق الذي أحسسته أول مرة عند دخولي باب الجامعة

بدأت الساعات تمر وبدأ الأساتذة يتوافدون والحصص تمر مر أسبوع كنا ندرس طوال أيامه و بعدها كنت أعود للمنزل

ولا تحدثني عن الإقامة التي كلما وطئتها أحسست بالكآبة والضجر يصيبني، ربما لتل النظرة التي كنت أتلقاها من بعض الشباب أو ربما، لبعض كلماتهم، أتذكر مرة كنت أحاول الصعود في الدرج متوجها إلى غرفة عبد الرحمان وأحدهم كان ورائي مع صديق له، كنت أحاول الإسراع لكن خانتني ساقي فكنت أسمع ضجره وتأففه لأني لا أسرع في الصعود ولا أسمح له بالمرور وكوني عاجزا، و إذ به يقول:أصبحنا نسكن مع العاجزين يا له من أمر مزعج، كلماته تلك رغم كونه محق فأنا حقا عاجز، لكن أسلوبه المني حينها، وجعلني أحس بأنني مظلوم، البعض من البشر يجعلك تحس بأنه أفضل منك يجعلك تفكر بأن الله –وحاشاه سبحانه- ما عدل معك ربما هذا قول من يحس بالنقص، لكن ليس من الجيد أن تجرح الآخرين بكلماتك أن تجعلهم يتمنون ألا يكونوا كما هم، كما كتب الله لهم

المهم حين توجهت إلى غرفة عبد الرحمان قلت له: بأني سأنقص من زياراتي له، ظل محتارا سألني لما، قلت له أني أسبب الإزعاج لمن حولي فزادت حيرته، فقلت له ما حدث معي، سكت عبد الرحمان وقد بدأت الحمرة تعلوا وجهه، ثم قال:سألت ربي أن يهدي ما خلق من بشر، سبحان الله حتى خلق الله يتدخلون به، أتعلم أمرا يا عبد الله إن اعدت علي ما قلته لي عنهم، سأعل حقا أنك عاجز كما يقولون، اسمع يا أخي إذا كان من حولك لا يرون منك إلا إعاقتك فذلك ليس لنقص بك بل الذي به أعاقة هو من يبحث عن انتقاص الآخرين، لربما أهون علي ان أصاب في جسدي، خير من أن أصاب في إيماني أن أتخل في قضاء الله أن أجعل من حولي يتألمون فالكلام السيء سهم قد يؤدي إلى إصابة خطيرة لا تشفى مدى العمر

لأول مرة في حياتي أحس بأني املك أخا حقيقيا، كانت كلماته ترياقاً أصاب موضع الجرح من روحي التي كانت تنتفض غضبا وسخطا فجعلها تطمئن وتسكن إلى الإيمان بقضاء الله

تذكرت أصدقائي قبلا عقدت مقارنة عندها فقط أحسست بأن الله لا يمكن إلا أن يكون رحيما بعباده وأن الله كلما سقط أحد بعث له من يجذبه إلى نور الحياة

بعد أيام من تلك الحادثة، كنت مستلقيا في غرفتي وإذا بعبد الرحمان يناديني بأعلى صوته فتحت له كان يحمل كل أغراضه والسعادة بادية على محياه قال بأنه انتقل للعيش معي... كان ذلك الخبر جد مفرح بالنسبة لي سعدت بان هناك في هاته الدنيا من يفرح بالعيش معي لم اعد أحس بالضجر ولا بالانزعاج من ذهابي إلى الإقامة لأني كنت دوما مطمئنا إلى وجود أخ يحبني وكنا نخرج معا نتحدث نضحك سويا...

### المحطة السابعة:

كنت كل أسبوع أذهب لزيارة منزلنا، أمي غالب الأحيان تكون لدى أختي، كلما دخلت الباب تذكرت والدي رحمه الله مكتبته كل كتاب فيها أصبح يذكرني به، وبمجرد أن أفتح صفحاته أشتم عبق والدي، أتذكر كل ما كان يفعله، الذكريات هي غالب الأحيان أمر مؤلم وأحياناً أخرى يجعلك تسعد، أتخيل نفسي قد أصبت بمرض النسيان أقول في نفسي هل النسيان نعمة أو نقمة فلو نسيت والدي لما أصبحت الآن أدرس أقول لو نسيته لما أفقت من غفلتي حينها، تعلمت أن لله حكمة في كل أمر حزينا مؤلم يصيبنا به المفترض علينا التسليم والصبر ومجاهدة النفس خاصة في زمننا هذا زمن الفتن، أطلق على زمني زمن الأنا فهو كلما نراه من الناس وحتى من أقربهم، عشت كثيرا من الأحداث هذا العام ورأيت عدة من الأمور التي جعلني أكتئب وأمور أسعدتني، وأشخاصا قدموا لي دروسا لن أنساها ما حييت، مرت السنة الأولى فيها عرفت أشخاصا مختلفين كثيرا عن لكن استطعت بفضل الله الولوج إلى قلوبهم وزرع محبتي فيها، وما أتاني الله هذا الفضل إلا وكان لازما علي شكره، فله الحمد والمنة دائما وأبدا، كانت سنتي الأولى لم تشتمل على أحداث عدة أو مغامرات كوني لا استطيع في غالب الأحيان أن أعتاد على الأمور الجديدة بسرعة، الامتحان الأول لم أنجح بل اضطررت للدخول إلى الاستدراك، أتذكر أني جلست في غرفتي وحيدا لأن عبد الرحمان قد نجح وذهب إلى المنزل، وجدت الغرفة دون حياة، ذهبت إلى المكتبة، اشتريت جملة من الروايات لكاتبة اسمها أجاثا كرستي، كنت شغوفا بتتبع أحداثها كانت تحبك الجرائم وتحلها بطريقة رائعة اشتريت حوالي ثمان روايات، كنت أذهب إلى الغداء واصلي ثم أبدأ في قراءتها، في احد الأيام فتحت النافذة وإذا بي أرى الثلوج تتهاطل كانت من أجمل المناظر التي رأيتها الثلوج البيضاء، قبلا كانت تنزل وهي تحمل أشكالا مختلفة أسعد لحظات حياتي كانت بالنظر إلى الثلج ساعتها أحس بأن أعماق روحي سعيدة لما لا اعلم، فتحت النافذة أتفرج دون أن أنزل لأني كنت أخشى نظرة الناس إلي كنت حينها غبيا جدا ضيعت عدة مواقف كنت سأحتفظ بذكريات رائعة لكن كنت أظن أن الكل يهتمون بكل خطوة أخطوها وهذا كان جهلا مني فالناس لا يهمهم أحد ولم يكن أصلا لوجودي أي معنى فحتى أن ليس هناك عشرة أشخاص يعرفونني، في الجامعة تتعرف على أخطائك،. . في أسبوع الاستدراك لم أكن أدرس فقط كنت أقرأ روايات، ليس استهزاء مني لكن لم أكن املك القدرة لأني لم أعتد ذلك الجو المحيط بي، و أخيرا انتهى الامتحان ولله الحمد والمنة استطعت النجاح، لا أنصح أحدا بالتواكل فهو ان نجحك هذا اليوم فغدا لن تفلح أبدا مرت أربع سنوات و أنا انتهج نفس النهج رغم أني كنت أنتقل من سنة إلى أخرى إلا أن راسي فارغ تماما،... تضييع الوقت فيما لا ينفع فكان جزائي أني سأتخرج وأحمل شهادة لكن في الواقع هي شهادة فارغة شهادة ذل لا شهادة أفخر بحملها الله المستعان هذا كله لكسلي وعدم نظرتي لما أحمله من رسالة ينبغي علي أن أبلغها، تعلمت في الجامعة أمورا عدة وقضيت ساعات وأياما بل وأشهر في المعاناة من الأم لم تكن لتوجد لولا ان كنت بعيدا عن الله تحسرت كثيرا لفوات أمور تمنيتها ولم أحصلها، رأيت أصدقاء الدراسة كل منهم يجد ويحصل على ما تمنى، أما أنا فكانت أيامي راكدة خالية من أي نجاح، أردت حفظ القران فكلما فتحت المصحف وجدت مللا وكلما قرأت صعب علي الفهم والتركيز والربط بين معاني الآيات والسور، يوما بعد يوم عرفت أنها الذنوب والمعاصي التي غالبا ما وقعت فيها، كان من الأفضل لي أن استغفر و أتوب، الاستغفار له فائدة عظمى غالبنا يغفل عنها لذلك حملت سلاح الاستغفار وكلما وقعت في معصية أكثرت منه وإذا بي أرى الأمر الذي أريده يتحقق عيانا أمامي، في إحدى الأيام كنت أجلس على ارض الملعب الموجود في إقامتي احمل بيدي كتابا عنوانه (مفتاح دار السعادة) طبعا كان من تأليف الإمام ابن القيم رحمه الله ورحم والدي، في ذلك اليوم جاءني أحد الأشخاص سلم وجلس بجانبي قال بأنه يدرس شريعة اسلامية في نفس المعهد الذي أدرس فيه وأنه راني عدة مرات هناك وأنه أحس بأني أتجنب الكل فأراد أن يكون لي صديقا، المهم أصبح يزورني كثيرا في غرفتي ويساعدني في اقتناء الكثير من الكتب المتنوعة كان اسمه أحمد قال لي انه لم يكن انسانا جيدا و أنه كان يسير في طريق أغبر أخبرني أنه كان يعرف فتاة وأنه أَحبها وكانت إنسانة طيبة فقيرة كان يتعمد إزعاجها و إيذائها بكل ما يستطيعه لكنها لم تكن تهتم أو تنظر إليه أو ترد عليه، يوماً ما رأى سيارة الإسعاف متوقفة أمام منزلها فهي جارته، أول الأمر لم يهتم قال لعله والدها، لكن سرعان ما ظهر والدها وهو يحمل معهم ابنته وكانت صفراء اللون ووجهها شاحب لأول مرة يراها بهذا المنظر ووالدتها تبكي بشدة، المهم لم اهتم كثيرا قلت البنات هكذا هن ضعيفات، ذهبت كالعادة أسمر مع صديق لي في سيارته كان يحب الإسراع كثيراً ذهبنا إلى شاطئ البحر، في طريق العودة انزلقت السيارة، ولولا ستر الله لذهبنا هباء منثورا تم نقلنا إلى المشفى، و يا لها من مصادفة رأيت والدها هناك يبكي بحسرة قطب الممرض جرحي ثم توجهت إلى والدها أساله ما لأمر فقال لي أن ابنته مريضة و أن كلا من كليتيها توقفتا عن العمل وستبدأ تصفية الدم حزنت لأجلها ثم عدت إلى المنزل... مرت أيام كثيرة لم أرها نسيت أمرها في أحد الأيام رايتها تخرج من منزلها كانت حالتها تدل على مرض الم بها أردت ان أكون لطيفا معها لكن لم أستطع فقلت لها من الجيد إنها مازالت على قيد الحياة نظرت إلي نظرة لم انسها كانت نظرة حزينة وقاسية جعلتني لأول مرة في حياتي اخجل من نفسي قالت لي يا أحمد لا تعد لمثل ما تفعله حياتك وكل وقتك ملكك لكن لست تعلم متى تسحب منك فقم بعمل ينفعك الست تحب الله، أتعلم مهما فعلت معي فلا شيء من كلامك يضرني أتعلم لما لأني أؤمن بقضاء الله و أنه ما ضرني أو نفعني إلا بحكمة هو أعلم بها فدائما لا أجزع أو احزن فقط ارضى أو تظن أن الموت لن يأخذ إلا العجائز لا تغتر بشبابك وصحتك إنما هي أرزاق من الله لك فكن من الشاكرين وأعط لحياتك معنى أعمل أدرس أفد و استفد لا تبقى عالة على من حولك ثم رحلت.

بقيت كلماتها ترن في أذني هي محقة في كل مقالته لي عدت للبيت أفكر وقررت حينها إكمال دراستي ثم نجحت وقررت التخصص في الشريعة الإسلامية علني أجد طريقي إلى ربي وما زلت كلما قرأت شيء عرفت أن عظمة الله أجل وأكبر من أن نكتشفها، أما تلك الفتاة فقد أصبحت زوجتي وتبرع لها والدها بإحدى كليتيه وكلما نظرت إليها شكرت الله أن أنعم علي بها وسخر لي انسانة طيبة ثم قال لي أن الإنسان مهما حصل معه يجب ان يدعو الله ولا ينساه، فالدعاء سلاح يا أخي فلا تنس هذا..

كانت هذه قصة أحمد صديقي سعدت بمعرفته وزاد يقيني عظمة الله وحكمته في كل أمر

اليوم هو الأخير لي في الإقامة... يوم تخرجي غدا تحضر أمي وأختي وزوجها وابنها صالح، حضرت مذكرتي وغدا ألقيها، الليلة ودعت كل أصدقائي وتعاهدنا على البقاء إخوة ماحيينا

### المحطة التاسعة:

مرت ثلاث سنوات على تخرجي، لم أجد عملاً في مدرسة حكومية لكني أحفُظ القران في المسجد المجاور لمنزلنا أمي ماتت رحمها الله، بيتنا أصبح فارغا رغم وجود عائلتي المصغرة ابني عبد الرؤوف سميته تيمنا باسم والدي رحمه الله زوجتي... من في رأيكم هديل أجل هديل لو يعود الزمن بي لما تخيلت يوما أني سأتزوجها ولا أني حتى سأحظى بنظرة من عينيها، لكنه الله، وما أعظمه، الله جبار الخواطر أجل بت الآن أعلم أن الطريق إلى الله شاق ومليء بالصعوبات والمطبات لكنه سبحانه لا يتخلى عن عبده مهما تعرض له من صعوبات فسبحانه يأخذ بيده، أنام الآن باطمئنان وراحة بال، قريبا سأكبر أول تكبيرة لي فقد تم تعييني المؤذن الرئيسي لمسجد الرحمة، أجل مسجد الرحمة، نفس مكبر الصوت الذي أوصل صدى صوت والدي إلى أذني كل يوم هو الآن سيوصل صدى صوتي إلى ابني كم هي رائعة تلك النعمة، كم أن الثقة بالله تفعم القلب بالهدوء والسكينة، أصبحت حياتي الآن حياتي رغم ما فيها من اضطرابات أكثر هدوءًا لا أحمل أي هم أو ثقل في قلبي لان دوائي وجنتي في قلبي فلا أخشى الأيام وما تحمله.

في أحد الأيام جاءني أحد تلاميذي سألني كيف اقطع ساقي احترت في كلامه لم افهم قصده قلت له ما بك يا محمد قال لي أن أباه قال له لولا أن قطعت ساق معلمك عبد الله لما أصبح محبوباً وذا مكانة لدى كل الناس ولما حفظ القران فأنا أود أن أكون مثلك حينها ذرفت عيناي دموعًا كثيرة قلت في نفسي: إلهي لولا رحمتك وفضلك لكنت مشردا هائما على وجهي لكن رحمتك غمرتني فلك الحمد على ما أنعمت علي به قلت له يا بني كل ما عليك فعله هو الاجتهاد والتوكل على الله ولا تكن عاصيا لوالديك بل كن بهما بارا و أطعهما في كل ما يقوله فستصبح أكثر مني بكثير.

أحيانا كثيرة تجد طلاباً صغاراً لكن يحملون عقولا كبيرة.

كعادتي كنت جالساً في مكتبتي أقلب كتبي، إذا بي أمر على صورة جماعية، لقسمي في السنة الثالثة من مرحلة المتوسط حاولت استعادة أسماء كلمن درسوا معي لفت انتباهي صورة شفيق لم أنسى اسمه لأني عرفته وكان من أصدقائي المقربين كان يسكن بعيداً عن المدرسة يأتي صباحا بالحافلة أحياناً كثيرة يتأخر يوبخه الأساتذة لم يعلموا انه كان يجاهد ليدرس لم أكن أول الأمر مقربا منه في أحد المرات رايته منزوياً كئيباً اقتربت منه سألته ما أمرك لم يجبني وقال بأنه بخير لله الحمد و شكرني لسؤالي عنه أحيانا كثيرة كان حزينا وكلما حاولت سؤاله ردني بقوله الحمد لله في احد المرات قررت ان اكتب له رسالة أردت مساعدته قلت له فيها باني استشعرت حزنه وذكرت له ان الله موجود رغم أني كنت احزن لأتفه الأسباب لكني ظننت ان كلماتي التي اسمع أبي يقولها ستخفف عنه وقدمتها له في اليوم التالي جاء إلي مسرعا فور ان راني قال بأنه سعد بكل كلمة قراها وانه لأول مرة يجد إنساناً يهتم بحاله وأخبرني أن حالتهم مزرية والده متزوج وله أخت وحيدة زوجة أبيه تضايق أمه المقعدة وأنها ذات يوم قامت بدفعها حتى كسرت ساقها وأن والده يضربه ويأمره بالعمل وترك الدراسة وانه يخشى كلما جاء إلى المدرسة أن يحدث سوء لأمه أو أخته حزنت لأجله كثيراً و أصبحت أسعى وأحاول مساندته بكل ما استطعت الآن وجت رسالته التي كتبها لي في يومنا الأخير من الدراسة قال لي بأنه كتبه على ضوء التلفاز لأن والده أطفأ المصباح لذلك اعتذر مني على رداءة الخط قال فيها:

(يا صديقي العزيز لا أعرف من أين أبتدئ لأن الأيام داهمتنا وكاد الفراق ان يبعدنا وأنا اكره الفراق خاصة عندما عرفتك لان الفراق بيني وبينك صعب حقا... ا ت الوحيد الذي علمني كيف اعبر عن شعوري تجاه أصدقائي... )

منذ تلك الأيام لم أره ولم اعرف عنه أية أخبار، يا ترى ما حاله؟ أسأل الله ان يكون بخير وسلامة وان تكون حياته قد تحسنت كان حقا فتى طيب القلب...

حقا الحياة غريبة منذ دخولي إلى مهنة التدريس وتحفيظ القران، أصبحت أحس باني قريب من الناس ومشاكلهم كل يوم تحدث معي حادثة أغرب من سابقتها يأتيني أناس كثر، اكتشفت أن البشر عندما لا ينفعهم دواء الأطباء يهرعون إلى دواء طبيب القلوب ربهم وخالقهم في النهاية الكل يعود لفطرته وكل يعود من طريق مختلف لكن يجتمعون على طريق واحد في إحدى الحالات التي مرت بي؛ امرأة مسنة جاءتني بعد صلاة الجمعة طلبت مني الاستماع لها، جلست مقابلا لها قلت لها قول لي يا أماه ما شأنك وما تودين؟ قالت يا ولدي لي حكاية مع أبنائي اسمعها مني علك تجد دواء لقلبي المنفطر وتجبر خاطري فور ما سمعت كلماتها ورأيت دموعها الغزيرة أحسست بالحزن لحالها وقررت مساعدتها بما أستطيعه، قالت لي أنها تملك أربع أولاد و أربع بنات و أنها سعدت كلما أنجبت احدهم وظنت أنها عندما تكبر ستجدهم عضدا وسندا لها لكن هيهات، بعد أن رق عظمها وشاب شعر رأسها أصبحت كل يوم ترى أسرتها وهي تتشتت وتضيع ما عن ولدها الأكبر الذي كان له النصيب الوافر من حنانها حتى أبوه كان يصحبه أينما حل ويقدم له كل ما يتمنى في يوم تخرجه لم يقل لهم حتى انه سيتخرج بل انه قد جعل عائلة فتاة ما هي التي تحضر بدل عن عائلته، وبعد إنهائه وتخرجه ذهب للجيش ولم يعد أصلا يهتم بوجود أسرته وبعد زواجه نسيهم تمامًا، حتى وفاة جدته لم يحضر ليكون بجانب أمه، كان هذا أول كسر تعانيه تلك الأم ثم جاء ابنها الآخر، الذي أفسده أصدقاء السوء... عائلتها مضطربة وكل فرد منها لا يهتم بالآخر. تحدثت عن صباها قالت بأنها عاشت فقط سبع سنين من حياتها بخير ثم فقدت أمها وتزوجت برجل آخر كذلك فقدت والدها وذلك حينما كان عمرها فقط 40 يوماً ثم رفضت عائلة أبيها ان تعيش مع أمها فأصبحت امرأة وهي في السابعة فقط حملت هم الدنيا وهي لم تبلغ ذروة الصبا فقدت الحنان قالت بأنها كانت تخرج وتجلس مسندة ظهرها إلى حائط المنزل تدعو وتتحدث إلى والدها كان الجبل مقابلاً لها وكان والدها مجاهدا توفي ولم تعرف حتى شكله وكل صوره تم حرقها تفتخر به دائما لكن ليس لها نصيب من السعادة، تخشى فساد. أبنائها أكثر ضاقت بها كل السبل لم تجد من طريق يحمل أسرتها إلى الأمان قالت بان صبرها كله قد نفذ الآن هي وحيدة دون سند... أحيانا تقف الكلمات عاجزة عن التعبير أمام قسوة الأبناء لم تحضرني ولا كلمة تجعلني اخفف عن قلب هذه الأم المحطم يبدو أن هؤلاء الأبناء جهلة قلت في نفسي هاته المرأة المسكينة وغيرها كثيرات يعانين من تسلط وقسوة أبنائهن أجد ان المشكلة كلها تتمحور حول التربية الفاسدة التي تلقاها هؤلاء الأبناء كان من المفترض ان يربوهم لزمن غير زمنهم فالدنيا تتغير و الأحوال لا تبقى على حالها والجهل من قبل الأبناء بمكانة الوالدين وجزاء من يعصيهما بل الله عز وجل حذر ونهى من قول أف لهما فما بالك بمن يسبهما ويشتمهما بأقبح الكلمات دون ان يرف له جفن ولنا في من سبقونا من الصالحين عبرة قيل: طلب بعضهم من ولده ان يسقيه ماء فلما أتاه بالشربة نام أبوه، فما زال الولد واقفا بالشربة إلى الصباح حتى استيقظ أبوه من منامه. وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن لي أماً بلغ منها الكبر وأنها لا تقضي حاجتها الا وظهري مطية لها فهل أديت حقها قال لا لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تتمنى بقائك وأنت تصنعه وتتمنى فراقها. ومن الصالحين ابن سيرين رحمه الله كان يكلم أمه كما يكلم الأمير الذي لا ينتصف منه. أما عن الإمام علي فق بلغ به البر انه كان لا يأكل مع أمه في صحفة فسأل عن ذلك فقال أنه يخاف أن تسبق يده يدها إلى ما سبقت عيناها إليه فيكون قد عقها، أنظر حال هؤلاء وحالنا رحمتك ربي بنا، وعن الإمام علي انه قال لو علم الله من العقوق شيء أدنى من أف لحرمه فليعمل العاق ما شاء ان يعمل فلن يدخل الجنة وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النُار، كلمات وحال تلك المرأة ذكرتني بحالي حينما كنت أعصي والداي ولا أهتم بكل ما يقولانه، ولولا عطف الله ورحمته بي لما اهتديت وتبت مما كنت فيه، سأحاول ان أزرع قيم وأخلاق الصحابة في أبنائي الذين أدرُسهم علي أمنع وأحبس بكاء مرة أخرى علي أبعد الأسى والحزن عن قلب أم.

### المحطة العاشرة:

تقبع في نفس الكثيرين أمنيات كثيرة أغلبها تبقى أمنيات، أحيانا كثيرة لا تكون تلك الأمنيات مستحيلة إنما لأن أصحابها يعيشون في دوامة من الأحلام المتواصلة، يفيقون على نهاية سعيدة لحم ما ليبدأ معهم حلم آخر وكأن صناعة الأحلام أصبحت عملهم الوحيدة في الحياة هي عملهم الوحيد في الحياة، من الجيد صنع حلم لكن ان تعيش كل مراحله من بدايته إلى نهايته في الخيال هو الأمر الذي ليس بجيد وعواقبه وخيمة على صاحبه لان الحياة لا تستمر طويلا مع الأحلام و الأحلام لا تصنع الرجال فقط العمل هو رسالة الأحياء ومن لم يؤدها فهو لا محال ميت على قيد الحياة اذا أردت ان تعيش سعيدا لا تجعل الفراغ يأكل كل خلية حية فيك، الفراغ آفة أضف إليها الأحلام يصبح الإنسان كائناً مجرداً عن كل ما وهبه الله بل كائنا معطلاً كآلة صدئت لكثرة توقفها عن العمل ما وجدت مثل آفة الفراغ تميت كل ركن وجزء حي في الإنسان العمل هو اثر يخلف كل منا فعملي في تدريس الأولاد يخلف أثرا في حياتي وحياتهم فأحيانا كثيرة أسمع أن أحد الصبيان الذين درُستهم قد تفوقوا في مجال ما افخر بكوني كنت أول من علمه الحروف العربية، أو ليس هذا أثرا طيبا، في المقابل تجد آخرون يسعون دون أي اهتمام فقط يبحثون عن اقصر الطرق لكسب المال فتجد احدهم يختلس الأموال و آخر يبيع المخدرات هذا أيضا عمل لكن الفرق يكمن في نتيجة واثر هذا العمل على حياة صاحبه أولا وعل حياة من قدم لهم هذا العمل تسمع أحيانا أن فلاناً لم يتجاوز السادسة عشر قد أصبح مدمنا وأمه تعاني الأمرُين في سبيل إرضائه وهو لا يتعظ بدموعها التي خَلَفَتْهَا ملقاة على سرير المرض، ولا متعظا بابيه الذي ينظر إليه الكل نظرة مقت لأنه لم يحسن تربية أبنائه، تلك هي عائدات الأحلام التي تجعل صاحبها يعيش أوهاما ويصدقها، حتى لو كانت الأحلام جزءًا من الحياة إلا أنها دون عمل وسعي لتحقيقها لا تساوي شيئًا.

المحتويات

[الطريق إلى الله 2](#_Toc490082890)

[المحطة الأولى: 3](#_Toc490082891)

[المحطة الثانية: 5](#_Toc490082892)

[المحطة الثالثة: 7](#_Toc490082893)

[المحطة الخامسة: 12](#_Toc490082894)

[المحطة السابعة: 15](#_Toc490082895)

[المحطة التاسعة: 18](#_Toc490082896)

[المحطة العاشرة: 21](#_Toc490082897)